مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (3)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (3) 2013

الكُدية في " البخلاء" للجاحظ

الدكتور مالك يحيا*
الدكتورة سميرة الراهب**
سائر دندش***

(تاريخ الإيداع 7 / 4 / 2013. قبل للنشر في 16 / 6 / 2013)

□ ملخّص □

يعرض هذا البحث لظاهرة اجتماعيّة أدبيّة في المجتمع العباسيّ هي ظاهرة الكدية، وهي إحدى الطرق التي احترفها بعض بخلاء الجاحظ في سبيل تحصيل المال عن طريق الاحتيال، والمرادف لهذه الكلمة هو لفظ التسوّل، وازدادت هذه الظاهرة انتشاراً وأهمية بازدياد الفقر والحرمان، وازدياد اختلاط العرب بالعجم، إلى جانب ما يجد المُكدون فيها من طمأنينة العيش وراحة النفس. والبخيل المُكدِي كانت غايته الثراء وجمع المال، وفي سبيل الحصول على ذلك لا يتورّع عن طرق كل أبواب الاحتيال والخداع. وقد توزّع المكدون في حيلهم إلى ثلاثة أصناف: مكدون اعتمدوا على خداع حاسّة البصر، ومكدون اعتمدوا على خداع حاسّة السمع، ومكدون اعتمدوا على خداع القلوب والعقول.

واخترت كتاب البخلاء للجاحظ مجالاً لعرض هذه الظاهرة؛ لأنّه كان أوّل من أدخل هذه الفئة الاجتماعية في الأدب العربيّ في القرن الثالث عبر قصصه وحكاياته، وأوّل من صنّفهم وذكر حيلهم، ومهّد الطريق لمن جاء بعده.

الكلمات المفتاحيّة: مُكْدِي الجاحظ، البخيل المُكْدِي، الأدب الشعبي.

* أستاذ مساعد– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** مدرّسة متفرّغة – قسم اللغة العربية كلية الآداب والعوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
*** طالب دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (3)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (3) 2013

Begging in Al- Jahez's *The Niggards*

Dr. Malek Yahia*
Dr. Sameera Al-raheb**
Saeer Dandash***

(Received 7 / 4 / 2013. Accepted 16 / 6 / 2013)

□ ABSTRACT □

This research discusses a literary social phenomenon in the Abbasi society, which is begging. It is one of the ways that some of the niggards in Al-Jahez's book had mastered in order to earn money fraudulently. This phenomenon spread and gained more significance along with the increasing of poverty and deprivation, and the mingling of Arabs with foreigners. Those beggars found comfort and easiness in this lifestyle. They aimed at collecting money and becoming wealthy. In order to do so, he wouldn't hesitate to practice all manners of deception and fraud. They can be divided into three types: beggars who use the deception of the eye, beggars who use the deception of the ear, and beggars who use the deception of the hearts and minds.

And the reason I chose AL-Jahez's ***The Niggards*** to demonstrate this phenomenon is that he was the first to deal with this social category in Arabic literature in the third century through his stories and tales. He was the first to categorize them and mention their tricks, and he paved the way to the writers after him.

Key words: AL-Jahez's niggards, the begging niggard, folk literature.

* **Associate professor, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria.**
** **Assigned teacher, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia , Syria.**
*** **Postgraduate student, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University, Lattakia , Syria.**

مقدّمـة:

إذا ما استعرضنا حركة التأليف عن البخل والبخلاء في التراث العربي "نجدها قد بدأت بأحاديث وحكايات وروايات جمعها الأصمعي وأبو عبيدة وغيرهما من رواة الشّعر والأخبار، ووردت مشتّتة لكنّها شكّلت النواة الأولى لأخبار البخلاء وقصصهم، ثمّ جاء أبو عثمان الجاحظ فألّف كتابه (البخلاء) فكان فتحاً عظيماً في هذا الميدان، بل إنّ ما جاء بعده عجز عن مجاراته، أو التفوق عليه، ونستطيع القول إنّ التأليف عن البخلاء قد ولد متكاملاً في أحسن صورة وأعظم تعبير على يد الجاحظ في كتاب البخلاء"[1].

ونجد الأدب العربي قد عالج البخل والبخلاء على أساس نماذج وشخصيات "وهذا ما نجده في الآثار القصصية مثل المقامات لبديع الزمان الهمذاني والحريري، وبعض النوادر والأخبار الواردة في ألف ليلة وليلة، والمؤلفات الأدبيّة الجامعة مثل: العقد الفريد لابن عبد ربه، والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيديّ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، ويشير ابن النديم في الفهرست هارون.... والملاحظ أنّ موضوع البخل والبخلاء قد ورد في هذه المؤلفات بشكل أخبار ونوادر أو أشعار وتشبيهات إمّا متفرّقة في فصول مختلفة من المؤلَّف أو مختصّاً بها فصل من الفصول"[2].

"ولا يخلو كتاب من كتب أدبنا العربي من أخبار طريفة عن طرق اصطياد المال وخداع الناس، إلاّ أن جحا هو أوّل بطل في هذا المضمار وإنْ لم تكن كلّ نوادره تدور حول التحايل والكدِّية. وإن صح أنّ جحا هو أبو الغصن دجين بن ثابت فإنّ أكثر نوادره تعود إلى القرن الثاني، أضيف إليها فيما بعد نوادر جحا الترك الخوجة نصر الدين الرومي في القرن السابع"[3].

وفي البخلاء عرض الجاحظ لأصناف عديدة من البخلاء "فهم يتعاطون مهناً مختلفة فمنهم من الملاكين الكبار؛ موردهم بدلات إيجاراتِ دُورِهم كالكندي، ومنهم من الاقتصاديين من رجال المال والتجارة كالمدائني والثوري وزبيدة بن حميد، وهذا الأخير كان يتعاطى الصيرفة وتجارة الرقيق، ومنهم من تعاطى اللّصوصيّة والكدّية كخالويه (خالد بن يزيد المُكْدِي) إنّما غالبية البخلاء كانوا من المثقفين أو المتعاقلين على حدّ تسمية الجاحظ لهم"[4].

وفي بحثنا هذا سنعرض لصنفٍ واحدٍ من البخلاء بشيء من التفصيل هو البخيل المُكْدِي.فـ"البخيل كائن حيّ يلتذّ بجمع القروش وهي عنده غاية يسعى في تحقيقها، وليست وسيلة للشراء وقضاء الحاجات الضرورية منها والكماليّة، ينظر البخيل إلى المال نظرة تقديس وإجلال، يتعبّد له ويحافظ عليه ويعمل من أجله، والبخيل هو عكس المُسرف الذي يجعل من المال خادماً له يبعثره دون حساب أو تقدير، يُلبّي كل رغباته على أكتاف العبد الذليل، قاضي الحاجات ومُلبّي الرغبات وبدل أن يكون خادماً له كالبخيل يصبح مخدوماً به"[5].

---

(1)- الربيع، محمد عبد الرحمن. نوادر البخلاء. (نصوص ودراسة). ط1، دار الشروق، القاهرة، 1999م، ص 55.

(2)- طنّوس، وهيب. في النثر العباسي. ط2، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيّة، جامعة حلب، 1981م، ص 126-127.

(3)- المالح، د. غسان. أدب الشحاذين. دراسة مقارنة. مجلة العربي، وزارة الإعلام بدولة الكويت،العدد 119، أكتوبر 1968م، ص 70.

(1)- سعد، فاروق. مع البخلاء. عرض دراسي لكتاب البخلاء. ط1، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1971م، ص 51.وينظر: الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء. تحقيق: الشيخ محمد سويد وصحّحه: مصطفى قصّاص، د.ط، دار إحياء العلوم، د.ت،ص 77.64.160.210.130.

(2)- الحاج حسن، حسين. أعلام في العصر العباسي. ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985م، ص 517.

والكُدّية هي "علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال"[1]."وليس ظهور المُكدِين بالظاهرة الأدبيّة بقدر ما هو بالظاهرة الاجتماعيّة فَهُمْ وإنْ برز بينهم من مارس الشعر والنظم، فئة كبيرة فقيرة بائسة اضطرتها ظروف العصر إلى الاستجداء والتسوّل، فإن لم تصب مغنماً فإلى التحايل والابتزاز"[2].

وكتاب البخلاء الذي وضعه الجاحظ "كان مظهراً من مظاهر النزعة الأدبيّة الجيّاشة القويّة الحسّ، السريعة الاستجابة، أخذ الجاحظ هذا الموضوع... فجعله موضوعاً أدبيّاً خالصاً ومتعةً فنيّةً رائعة، وكان رهيناً بالأغراض الموقوفة التي أثير من أجلها، فصار خالداً خلود النفس الإنسانيّة، يمتح منها ويصدر عنها ولها"[3].وقد ازدادت هذه الظاهرة انتشاراً "بازدياد عدد المُكدِين وبازدياد الفقر والحرمان، بدأ بطرف وحكايات قصيرة عند الجاحظ في القرن الثالث، ليصبح موضوع مقامات رئيسية عند بديع الزمان في القرن الرابع، قرن البذخ والفاقة، وليطبع مقامات الحريري بطابعه المميّز في القرن الخامس"[4].

"ثم تأتي بعد ذلك أسباب أخرى وجيهة، منها اختلاط العرب بالعجم من فرس وديلم وترك، وما نشأ عن ذلك من توالد حسّي ومعنوي حتى تنوسيت الأصول المرعيّة وافتقدت الكرامة العربية فقد كان العربي بطبعه أنوفاً يأبى الذل... ولكن الدماء والأفكار قد اختلطت في هذا العصر فأصبح حتى الوزير لا يأنف من أن يضربه الحاكم بالمقارع... فلا عجب أن يستمرئ أحدهم الكدِّية ولا يرى غضاضة في مدّ يده للناس يتسوّل ويستجدي"[5].

أهميّة البحث وأهدافه:

لم يحظَ الأدب الشعبيّ في العصر العباسيّ بعناية الباحثين، لا في القديم ولا في الحديث، ما خلا بعض الآراء التي قيلت دون بحث ودون تقصٍ لأبعاده ومحتواه. والظاهر أنّ الأدب الشعبيّ في ذلك العصر كان حافلاً بعشرات الظواهر الاجتماعيّة التي تستحقّ أن يفرد لها بحث مستقلّ، وكانت ظاهرة الكدّية أكثرها تميّزاً، فلم تقتصر على الجانب الاجتماعي فحسب، وإنّما كان لها جانب أدبي ممتع وطَريف.

وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من أهمية ما اقترنت به، وهو كتاب البخلاء للجاحظ، الذي يعدّ أوّل من صنّف المُكدِين وذكر حيلهم. فَهدفَ البحث إلى تسليط الضوء على هذه الظاهرة المتميّزة في كتاب البخلاء عبر شخصيّة خالويه المُكْدِي، الذي كان نموذجاً مفصحاً عن طبائع المُكدِين، وأخلاقهم، ولباسهم، وفلسفتهم في الحياة، وخصائصهم، وأساليبهم، وحيلهم من خلال وصيته لابنه التي أصبحت من الوصايا الخالدة في عالم الاحتيال والبخل،ولأنّ لأدب المُكدين سمات منها شيوع لغة المصطلح فكان من الفائدة أن يتعرّف القارئ ودارس فقه اللغة خصائص هذه اللغة .

(3)- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، د.ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1992م، 694/1.

(4)- المالح، د. غسان. أدب الشحاذين ، ص 71.

(5)- حسين، السيد عبد الحليم محمد. السخريّة في أدب الجاحظ. ط1، الدار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والإعلان، 1988م، ص 98.

(6)- المالح، د. غسان. أدب الشحاذين ، ص 72.

(1)- حرب، عبد الهادي محمد خير. موسوعة أدب المحتالين. د.ط، دار التكوين للتأليف والنشر، دمشق، 2008م، ص 72.

منهجية البحث:

إن المنهج الوصفيّ هو المتّبع في هذه الدراسة؛ وذلك انطلاقاً من أنّ البحث يتطرّق لظاهرة اجتماعيّة هي (الكدّية) ويعرض لأصناف المُكدِين، وطبائعهم، وحيلهم في سبيل الحصول على المال، ومن ثمّ تأتي القراءة التحليلية لتحاول الكشف عن خصائص البخيل المُكْدِي وأسلوبه في الاحتيال، وأثر هذه الظاهرة في الأدب العربي عامةً والأدب ذي المنازع الشعبية خاصةً.

مُكْدِي الجاحظ: خالد بن يزيد"خالويه":

"يرى الكثيرون أنّ المُكْدِين إن لم يكونوا هم (النَوَر) فإنّهم يشبهونهم كثيراً،ذلك للاتفاق الكبير في نمط حياتهم وتنقّلهم وترحالهم وانتشارهم في بقعة واسعة من العالم"[1].

و"إنّ الناظر في حديث الجاحظ عن المُكْدِين مثلاً يكشف معجماً خاصّاً بهذه الفئة، وأوّل مفردات هذا المعجم مصطلح "التّكدية" نفسه، فمع أنّ الكلمة قديمة فصيحة، جاء في القرآن الكريم: ﴿أفرأيت الذي تولّى وأعطى قليلاً وأكدى﴾[2]، فكدى المُكْدِي أي سأل، فإنّ التّكدية تجاوزت في اصطلاح الجاحظ مجرد السؤال والاستجداء إلى تضمّن معنى الاحتيال للمال، واستغلال غفلة الناس بمختلف الأساليب غير المشروعة[3]".

"ولعل فقر هذه الفئة يبدو جليّاً حين نقارنه بغنى الفئة الأخرى وثرائها، فئةِ الكبراءِ والأمراءِ، فقد رأى زائرٌ لقصر المقتدر أنّ عنده أحد عشر ألف عبد خصّي، ورأى شجرة من الفضّة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها طيور مصنوعة من الفضّة، وشاهد ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهّبة... ويقال إن الوزير المهلّبي ابتاع ورداً بألف دينار في ثلاثة أيام، كان يفرشه في مجالسه، ويطرحه في بركة كبيرة كانت في داره لها فوّارات تقذف به على رؤوس الجالسين، لا عجب والوضع هكذا أن يزداد عدد المحرومين، وأن يؤلّفوا الجيوش ويعرضوا خدماتهم على من يشاء، ولا عجب أن تكثر حوادث اللّصوصيّة"[4].لقد اقترنت التّكدية عند الجاحظ بالبخل.فهذا خالد بن يزيد المُكدِي* –خالويه– جمع البخل مع التّكدية، يقول الجاحظ: "وهذا خالد بن يزيد مولى المهالبة**، هو خالويه المُكْدِي، وكان قد بلغ في البخل والتّكدية، وفي كثرة المال المبالغَ التي لم يبلغها أحد"[5]."من هذا المستهلّ نعرف أنّنا أمام نموذج يختلف عن نماذج البخلاء في أمر هو موضوع حديثنا، فالبخلاء أثرياء وراثة أو اكتساباً من أعمال شتّى، ولكن بخيلنا هذا مفرط الغنى من ناحية واحدة سلك بها نواحي شتّى فهو مُكدٍ بلغ في تكديته مبالغ لم يصل إليها أحد قبله، كما بلغ في ثرائه من هذه النّكدية درجات لم يرتقِ إليها أحد قبله، فهو إمام في هاتين الناحيتين"[6].

---

(1)– طنّوس، وهيب. في النثر العباسي. ص 172.

(2)– سورة النجم، الآية 34.

(3)– النصراوي، الحبيب. مؤلفات الجاحظ مصدراً من مصادر معجم اللغة العربية التاريخي. دراسة في مستويات اللغة العربية. د.ط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 2009م، ص 236.

(4)– المالح، غسان. أدب الشحاذين ، ص 71.

*** هو خالويه المكدي (المتسوّل) وأحد البخلاء المشهورين الذين مارسوا التسوّل والسعي وراء المال بكل أنواع الحيل والوسائل غير المشروعة إلى حد السلب وابتزاز أموال الناس.ورد خبر هذا المُكْدِي في البخلاء بعنوان"حديث خالد بن يزيد".**

**** ومولى المهالبة الجاحظ،أبي عثمان عمرو بن بحر ،البخلاء هنا أي المنتسب إلى قبيلتهم بالولاء ،والمهالبة بنو المهّلب بن أبي صفرة الأزديّ.**

(1)– الجاحظ،أبي عثمان عمرو بن بحر ،البخلاء ، ص 77.

(2)– حرب، عبد الهادي محمد خير، موسوعة أدب المحتالين، ص 105.

وهذا ابنه بعد وفاة الوالد يفوقه بالبخل، فبعد وصيّة الأب الطويلة للابن والتي يوضّح فيها رأيه، وطرق جمعه المال، ومعرفته وخبرته، ينتهي الأمر بموت الوالد فكفّنه وغسله ودفنه فوراً، وعاد ليروي الجاحظ عنه ما يلي: "فلمّا صار في المنزل نظر إلى جرّة معلّقة، قال أي شيء في هذه الجرّة؟ قالوا: ليس اليوم فيها شيء، قال: فأي شيء كان فيها قبل اليوم؟ قالوا: سمن، قال: وما كان يصنع به؟ قالوا: كنا في الشتاء نلقي له في البُرمة* شيئاً من دقيق نعمله له... قال: والله لولا أنّ للجّرّة ثمناً لما كسرتها إلا على قبره. فقالوا: فخرج فوق أبيه، وما كنّا نظنّ أنّ فوقه مزيداً"[1].ويبرّر خالد بن يزيد بخله بتبرير أشبه ما يكون بأسلوب منطقيّ، متّخذاً الدين قناعاً يختفي وراءه، مظهراً إيمانه وتديّنه؛ إذ إنه لا ينفق المال لا لشيء، إلّا لأنّ ذكر الله قد نُقش على الدراهم "لا إله إلا الله" "توكلت على الله" "فأوّل ما وقع في روعي أن مالي محفوظ عليّ، وأنّ النماء لازم لي، وأنّ الله سيحفظ عقبي من بعدي،أنّي لمّا غَلَبَتني يوماً شهوتي،وأخرجت يوماً درهماً لقضاء وطري،ووقعت عيني على سكّته،وعلى اسم الله المكتوب عليه،قلتُ في نفسي:إني إذاً لمن الخاسرين الضّالّين،لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئاً عليه"لا إله إلّا الله"وأخذت بدله شيئاً ليس عليه شيء"[2]."وخالد بن يزيد عارف بأصناف المُكدِين ودرجاتهم بالفراسة وهذا ما استطاع أن يظهره الجاحظ بأسلوب بارع عندما أجلس خالداً في أحد مجالس البصرة وأمَّر عليه سائلاً يسأله فغلط بدرهم أعطاه فلساً بدلاً منه، فأنكر عليه جلساؤه ذلك، لكنّ خالداً دافع عن فعله قائلاً: "إنّي لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرّقه بعقولكم، ليس هذا من مساكين الدّراهم، هذا من مساكين الفلوس، والله إنّي ما أعرفه إلّا بالفراسة، قالوا: وإنك لتعرف المُكدِين؟ قال: وكيف لا أعرفهم؟ وأنا كنت كاجار* في حداثة سنّي...."[3].

وفي وصيّة خالويه لابنه حين يموت تتجلّى فلسفة البخلاء والمُكدِين على حد سواء، ومنها نعلم السبل التي كانوا يسلكونها والأساليب التي يلجؤون إليها في سبيل جمع الدرهم والدينار، "ولعلّ أوّل تلك الأساليب هو الرحلات؛ فالمُكدِون يزرعون الأرض برّها وبحرها ويجبون خيراتها، خالويه كما يقول عن نفسه قد فاق ذا القرنين في تطّوافه الأرض وتدويخه البلاد"[4].يقول: "قد بلغت في البرّ مُنقطع التراب، وفي البحر أقصى مبلغ السفن فلا عليك ألّا ترى ذا القرنين **ودعْ عنك مذاهب ابن شرية فإنّه لا يعرف إلّا ظاهر الخبر ولو رآني تميم الداريّ*** لأخذ عني صفة الروم****"[5]. فالمرجعيات التاريخية تحيلنا على ذي القرنين وتميم الداريّ، والجامع بين هاتين الشخصيتين التاريخيتين حبّ التنقّل والارتحال، فذو القرنين جاب أرض الله الواسعة حتى بلغ مغارب الشمس، وتميم الداريّ شاهد الجساسة وكلّم الدّجال، واستدعاء هاتين الشخصيتين يأتي من نسق التفوّق والتجاوز الذي يحقّقه المُكدِي"[6].

*** قِدرٌ من حجارة.**

(3)- الجاحظ،أبي عثمان عمرو بن بحر ،البخلاء،ص 86.

(4)- المصدر نفسه ،ص 86.

*** الغلام المكدّي إذا واجر وعليه مسحة جمال وعمل العملين جميعاً.ومعنى واجر أيّ أجّر نفسه.**

(1)- طنوس، وهيب. في النثر العباسي. ص 177. والشاهد في البخلاء. ص 77.

(2)- حرب، عبد الهادي محمد خير. موسوعة أدب المحتالين. ص 107.

**** يشير إلى قصة ذي القرنين المذكورة في القرآن الكريم.**

***** تميم الداريّ: هو تميم بن أوس بن خارجة من بني عبد الدار وفد على النبي (ص) من فلسطين وأسلم وسكن المدينة.**

****** ويقصد هنا بصفة الروم حالهم وما كانوا عليه من العلم.**

(3)- الجاحظ، أبي عثمان بن بحر. البخلاء. ص 79.

(4)- الكعبي، د. ضياء. السرد العربي القديم. (الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل). ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005 م، ص 103.

والمُكْدي يتفاخر بشجاعته وبراعته وبطولته لا بل إنّ الكراهيّة محل فخر له يقول: "سل عني صعاليك الجبل•، وزواقيل الشام••، وزط الآجام•••، ورؤوس الأكراد ومَرَدَة الأعراب وفتّاك نهر بطّ* ولصوص القُفْص** وسل عنّي القيقانية والقطريّة***..."[1].

"والمُكْدِي يدّعي العلم والتجربة والمعرفة، فخالويه المُكدِي يزعم لابنه: "ولو رآني تميم الداريّ لأخذ عني صفة الرّوم، ولأنا أهدى من القطا• ومن دُعيمص•• ومن رافع المخش•••... ثم يردف: "وعرفت خُدع الكاهن، وتدسيس العرّاف••••، وإلى ما يذهب الخطّاط •••••والعيّاف*، وما يقول أصحاب الأكتاف**، وعرفت التنجيم*** والزّجر**** والطّرق***** والفكر"[2].

والمُكْدِي لا يتصرّف بما يكتسبه فقد كانت غايته جمع المال،وهو عندما يحصل عليه يعيش ثرياً بخيلاً حيث يلتقي ببخلاء الجاحظ: يقول:"فأوّل ما وقع في ورعي أنّ مالي محفوظ عليّ، وأنّ النماء لازم لي"[3].وهؤلاء المُكدون: "وجدوا في الكدّية من طمأنينة العيش وهدوء البال ما لا يجده غيرهم في الصناعات، فصناعتهم محبّبة لذيذة، وصاحبها في نعيم لا ينفد... فحيثما حلّ لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء"[4]."وبالمثل فإنّ مهنتهم وكدّهم في طلب المال دفعاهم إلى تمثّل ثقافة عصرهم تمثّلاً يناسب ما يحتاجون معرفته في ضروب الصناعات، وفي أصول العِرافة والتنجيم، وذلك لا ينفي أنهم كان يصيبهم في سعيهم وكدّهم ألوان من التنكيل والعذاب بسبب رفض المجتمع صنيعهم"[5]. وكان خالويه المُكدي قد اعترف بامتهانه القصص إلى جانب أعماله وحيله الأخرى في الكدية،فقال في وصيّته لابنه:"أنا لو ذهب

• وهو الفقير الذي لامال له ولا اعتماد.

•• قوم بناحية الجزيرة.

••• جنس من السودان والهنود والآجام جمع أجمة وهي الشجر الملتف.

* نهر في الأهواز.

** جيل من الناس يتلصصون من كرمان.

*** القيقانية: لصوص من قيقان قرب طبرستان والقطريّة: لصوص ربما كانوا من قطر.

(1)- الجاحظ، أبي عثمان بن بحر. البخلاء ، ص 83

• القطا طائر يشبه الحجل سُمّي القطا لثقل في مشيته.

•• كان داهياً يضرب به المثل.

••• هو رافع بن عمير كان دليلاً ماهراً ولقب بالمخش لجرأته.

•••• مايأتيه من حيل ومكر.

••••• من يخطّ على أرض رخوة أو على الرمل لاستطلاع الغيب بزعمهم.

* العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها.

** الكتّاف: الذي ينظر في الأكتاف فيكهن فيها.

*** المنجّم:الذي ينظر في النجوم فيحسب سيرها ومواقيتها.

**** ضربٌ من التكّهن :أن تزجر طائراً أو ظبياً سانحاً أو بارحاً فتتطير منه.

***** الضرب بالحصى،وهو من التكّهن.

(2)- المصدر نفسه ، ص 79-80.

(3)- المصدر نفسه، ص 85.

(4)- المنجد، صلاح الدين. الظرفاء والشّحّاذون في بغداد وباريس. ط1،دار الكتاب الجديد، بيروت، 1993، ص 119.

(5)- عويس، د.محمد. المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ. د.ط، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1977م، ص 171.

مالي لجلست قاصّاً،أو طفت في الآفاق،كما كنت مكدياً،اللحية وافرة بيضاء،والحَلْقُ جهيرٌ طلّ*والسمت حسن والقبول عليَّ واقع"[1]

وشهادة الجاحظ له بقوله:"وكان قاصّاً متكّلماً بليغاً داهياً"[2]."والقاصّ من أبرع المُكدين حيلةً لأنّه يستولي على القلوب ويستحوذ على المشاعر فيما يقصّه من حكايات،ويرويه من أساطير،تطير بسامعها إلى عوالم سحريّة غامضة،ثمّ يقف القاصّ فجأةً عند عقدة لم تحلّ،فيصحو النّاس من لذيذ أحلامهم ليروا أمامهم المكوّز الذي يجمع المال للقاصّ أو لنفسه،فيضطّرون إلى دفع مايريد ليعودوا إلى استمتاعهم"[3]

وأمّا مراتب المُكْدِين وتسلسلها فلا نملك ما يسعفنا في معرفتها بدقّة ولكنّا نذكر ما عثرنا عليه عند أحد الباحثين "فقد ذكر من بينهم البهاليل، وهم رؤساء المُكدِين، وكذلك العريف والكاخان فقد ذكرهما خالويه المُكْدِي، دون توضيح آخر، ويفهم من سياق حديثه أنّ الأدنى منهم يقوم على خدمة الأعلى مرتبة"[4]."لقد مهّد الجاحظ بما كتبه في الكدّية إلى فنّ قصصيّ فريد بنوعه ونعني به فنّ المقامات، كما تجلّى فيما بعد عند بديع الزمان الهمذاني والحريري في أبرع صوره وأكمل أشكاله، فحديث خالد بن يزيد إلى ابنه نجد صداه في وصيّة أبي الفتح الإسكندري لابنه، ووصف الإسكندريّ لمغامراته في المقامة السجستانيّة قريب من وصف خالويه لما كابده، وكذلك أساليب احتيال اللصوص في المقامة الرصافيّة تنهج نهجاً يكاد يطابق ما رواه خالد في هذا السبيل"[5].

أيضاً"إذا كان مُكْدِي الجاحظ يشكو الزمان كمُكْدِي المقامات، فإنّ مُكْدِي الجاحظ ينتهي إلى الثراء ليتنعّم به، أما مُكْدِي المقامات فإنه ينتهي بأن يصبح متصوّفاً، ومُكْدِي الجاحظ لا يشعر بأنّ في الكُدّية عيباً بينما مُكْدِي المقامات يتذرّع بأن الزمان دفعه إليها دفعاً"[6].

حيل المُكدين وأصنافهم:

أيضاً"في سبيل الحصول على المال لا يتورّع المُكْدِي عن طرق جميع الأبواب والاحتيال بشتّى أنواع الحيل، وهذه الحيل مهما تنوّعت فنونها تهدف إلى شيء واحد هو استضعاف الناس حتى يهون عليهم بذل المال... فلا بدّ إذن من اصطناع حيلة لاستدرار شفقة الناس لا تعتمد على براعة القصّ، وطرافة الخيال، وإنمّا تعتمد على الحركة التمثيليّة، وهؤلاء هم الممثلون بالحركات، أو مدّعوْ العاهات، فصاحب العاهة يستحقّ العطف دون شك من وجوه شتّى"[7].

والمُكْدِي "يتزيّا في كل بلدة بزيٍّ يناسب تلك البلدة يحفّز أهلها إلى الثقة بأصحاب ذلك الزيّ، فتارةً يختارون زيّ الفقهاء، وتارةً يختارون زيّ الوُعاظ، وتارةً يختارون زي الأشراف، إلى غير ذلك"[8].ولا بدّ للمُكْدِي من أن يلبس لكلّ حالة لبوسها وأن يخالط جميع الناس على اختلاف طبقاتهم، وقد عبّر خالويه عن ذلك بقوله: "إنّي قد لابست السلاطين

---

* **يريد بالحلق،الصوت،وجهير من الجهر العلانية.**

(1)- الجاحظ، أبي عثمان بن بحر. البخلاء،ص83.

(2)- المصدر نفسه ،،ص79.

(3)- - حرب، عبد الهادي محمد خير. موسوعة أدب المحتالين،ص707.

(4)- حسن، د. أحمد حسين. أدب الكدّية في العصر العباسي. ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1986م، ص 39.

(5)- سعد، فاروق. مع البخلاء. ص 64.

(6)- المرجع نفسه ، ص 64.

(1)- حرب، عبد الهادي محمد خير. موسوعة أدب المحتالين. ص 140.

(2)- المالح، د. غسان. أدب الشحاذين. ص 70.

والمساكين، وخدمت الخلفاء والمُكْدِين، وخالطت النسّاك والفُتّاك، وعمرت السجون كما عمرت مجالس الذّكر، وحلبت الدّهر أشطره، ...."[1].

وينقسم المُكدون في حيلهم إلى ثلاثة أصناف:

1-مُكدون يعتمدون على الخداع لحاسّة البصر عن طريق العاهات المصطنعة والحقيقية.

2-مُكدون يعتمدون على الخداع لحاسّة السمع عن طريق الصوت المنفّر أو الشجّي المُطرب.

3-مُكدون يعتمدون على الخداع للعقول والقلوب بذكر ما آل إليه حالهم بعد ضياع تجارتهم وأحلامهم.

1- المُكدون الذين يعتمدون على الخداع لحاسّة البصر عن طريق العاهات المصطنعة والحقيقيّة:

"مما يفعله المُكْدِي لخداع حاسّة البصر ظهوره مثلاً بمظهر العاجز البائس كأن يكون مشلولاً أو أعمى أو أصمّ أو مشوّهاً وما إلى ذلك من ضروب العاهات... ولقد أدرك المُكدِون خطر هذا فعمدوا إلى تشويه أجسامهم، وانصرف بعضهم إلى صناعة هذا التشويه، فصانع العاهات على هذا موظّف رسميّ يتقاضى أجره من المُكدِين أنفسهم"[2].

والمُكْدِي الذي يصطنع العاهات سمّاه الجاحظ "**المُشَعِّب**" في تفسيره لكلام خالويه في معرفته لأصناف المتسولين،يقول الجاحظ:"هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط،وهم أضعاف ماذكرنا في العدد ولم يكن يجوز أن نتكلّف شيئاً ليس من الكتاب في شيء "[3].وقال في تعريفه: "والمُشَعِّب: الذي يحتال للصبي حين يولد، بأن يعميه، أو يجعله أعسم* أو أعضد** ليسأل الناس به أهله، وربما جاءت به أمّه أو أبوه ليتولى ذلك منه بالغُرم*** الثقيل: لأنّه يصير حينئذٍ عُقدةً وغَلّة****،فإمّا أن يكتسبا به وإمّا أن يكرياه بكراء معلوم وربما أكروا أولادهم ممن يمضي إلي أفريقيا –فيسأل بهم الطريق أجمع– فإن كان ثقة مليئاً وإلّا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً"[4].ومن المُكدِين من يصنع العاهات لنفسه وهؤلاء يختلفون بعاهاتهم عن عاهات المُشَعِّب، فعاهاتهم صناعة محضة كما سنرى، أمّا عاهات المُشَعِّب فهي حقيقية تتم منذ طفولة المُكْدِي.

ومن هؤلاء:

"**المَخْطَراني**: الذي يأتيك في زيّ ناسك، ويريك أنّ بابك* قد قوّر لسانه من أصله لأنّه كان مؤذّناً هناك، ثمّ يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب، فلا ترى لساناً البتّة، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور، وأنا أحد من خُدع بذلك، ولا بدّ للمَخْطَراني أن يكون معه واحدٌ يعبّر عنه أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصّته"[5].

و"**الكاغاني**: الذي يتجنّن ويتصارع ويُزبد، حتّى لا يُشَكّ أنه مجنون لا دواء له، لشدّة ما يُنْزِل بنفسه، حتّى يُتعجَّب من بقاء مثله على مثل علّته"[1].

---

(3)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء. ص 81.

(1)- حرب، عبد الهادي محمد خير. موسوعة ادب المحتالين. ص 123.

(2)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء،ص89.

*** يبس مفصل رسغه فاعوجّت من ذلك اليد أو القدم فهو أعسم.**

**** الأعضد ما كانت عضده دقيقة أو كانت إحدى عضديه أقصر من الأخرى.**

***** ما يُعطى من المال على كره.**

****** العقدة: الضيعة او العقار المُقتنى، والغَلّة: الدخل والمراد أن الطفل أصبح ضيعة تُجبى خيراتها.**

(3)- المصدر نفسه ، ص 87-88.

*** الأمير بابك الديلمي خرج على الخليفة وحاربه المعتصم ثم ظفر به وصلبه.**

(1)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء ، ص 86.

و"**القَرّسيّ:** الذي يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلة، فإذا تورّم واختنق الدم، مسحه بشيء من الصابون ودم الأخوين** وقطّر عليه شيئاً من سمن، وأطبق عليه خرقة، وكشف بعضه، فلا يشكّ من رآه أنّ به الأُكلة"[2].

و"**الفِلَّور:** الذي يحتال لخصيته حتى يريك أنه آدر• وربما أراك بها سرطاناً أو خُرّاجاً أو غَرَباً•• أو ربما أرى ذلك في دبره بأن يدخل فيه حلقوماً ببعض الرئة.... "[3].

و"**الإسطيل:** هو المتعامي إن شاء أراك أنه منخسف العينين، وإن شاء أراك أنّ بهما ماء، وإن شاء أراك أنه لا يبصر للخسف ولريح السَّبَل••• "[4].

ومن هؤلاء المُكدين الذي يخدعون البصر "**المكدّي:** صاحب الكداء"[5].

و"**الكاغان:** الغلام المُكْدِي إذا واجر* وكان عليه مسحة من الجمال، وعمل العَمَلين جميعاً"[6].

و"**الكعبيّ**":أضيف إلى أبيّ بن كعب الموصليّ،وكان عرّيفهم بعد خالويه سنةً على ماء"[7].

2-المُكدون الذين يعتمدون على الخداع لحاسّة السمع عن طريق الصوت المُنفِّر أو الشجّي المُطرب:

وقد سمّاه الجاحظ بالعوّاء، وقال: "**العوّاء:** الذي يسأل بين المغرب والعشاء، وربّما طرّب إن كان له صوت حسن حلق شجّي"[8].

"وإذا كان العوّاء يكدي بصوته فإن السكوت يكدي بصمته، يوهمك أنّه لا يحسن أن يتكلّم"[9].

ومن هؤلاء المُكدِين "**البانوان:** الذي يقف على الباب ويسُلُّ الغَلَقَ، ويقول: بانوا، وتفسير ذلك بالعربيّة: يا مولايْ"[10].

---

(2)- المصدر نفسه، ص 87.

**** نوع من الأعشاب قد يسمّى القاطر،والأيدع ،ودم التنين،ودم الثعبان،وهوصمغ أحمر يؤتى به من جزيرة سقطرى،ويقال:إنه دموع شجر كبير ببلاد الهند معروف هناك.النويري،أحمد بن عبد الوهاب.نهاية الأرب.نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب،سلسلة تراثنا،ا/317**

(3)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء ، ص 87.

• من أصابه فتق في إحدى خصيتيه.

•• الغرب: الورم.

(4)- المصدر نفسه ، ص 88.

••• هو داء يصيب العين يشبه غشاوة كأنها نسيج العنكبوت بعروق حمر.

(5)- المصدر نفسه ، ص 88.

(6)- المصدر نفسه، ص 89.وفي أدب الكدية لأحمد الحسين جاءت بلفظ الكاخان،ص44.

*** أي أجّر نفسه.**

(7)- المصدر نفسه. ص 88.

(8)- المصدر نفسه،ص89.

(1)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء ، ص 88.

(2)- حرب، د. عبد الهادي محمد خير. موسوعة أدب المحتالين. ص 126.ويضيف صلاح الدين المنجد في كتابه الظّرفاء والشّحاذون في بغداد وباريس "إنّ الأصح في لفظها بينوا ومعناها بالفارسية منقطع مسكين"ص73.

(3)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء. ص 87.

3- المُكدِون الذين يعتمدون على الخداع للعقول والقلوب بذكر ما آل إليه حالهم بعد ضياع تجارتهم:

ومن أمثالهم "**المَزيدي:** الذي يدور معه الدُّريهمات، ويقول: هذه دراهم قد جُمعت لي في ثمن قطيفة** فزيدوني فيها رحمكم الله، وربّما احتمل صبيّاً على أنّه لقيط، وربّما طلب في الكفن"[1].

و"**المُستعرِض:** الذي يُعارضك وهو ذو هيئة، وفي ثياب صالحة وكأنّه قد مات من الحياء، ويخاف أن يراه مَعرفة*** ثم يعترضك اعتراضاً، ويكلّمك خفيّاً"[2].

و"**المُقدِّسُ:** الذي يقف على الميت يسأل في كفنه. ويقف في طريق مكّة على الحمار الميّت، والبعير الميّت فيدّعي أنه كان له، ويزعم أنه قد أُحصر• وقد تعلّم لغة الخراسانيّة واليمانيّة والإفريقيّة، وتعرّف تلك المدن والسِّكك والرجال، وهو متى شاء كان إفريقيّاً، ومتى شاء كان من أهل فرغانة•• ومتى شاء كان من أيّ مخاليف اليمن شاء"[3].

و"**الزكوري:** هو خبز الصدقة، كان على سجين أو على سائل"[4].

وسأحاول إعطاء القارئ فكرة عن تلك الأصناف وحيلها كي تتكوّن لديه صورة كاملة عن عالم الكدّية والمُكدِين،ويعدّ الجاحظ أولّ من صنّفهم ،وذكر بعض حيلهم،إذ أثبت خمسة عشر صنفاً لهم؛ فإضافةً إلى تحديد الحاسّة التي يعتمد عليها المُكدون في الخداع،وإضافةً إلى شرح حيلة كلّ مُكْدٍ،عرضتُ للباس بعض المُكدِين،وقمتُ بتحديد المجال الذي ينتمي إليه الاحتيال بناءً على الحيلة المستخدمة،فوجدنا حيلاً تنتمي إلى مجال العلاج والمداواة،وأخرى إلى السّحر،وأخرى إلى التّسلية، إلى جانب الدّين كاستغلال المناسبات الدينيّة ومناسبات الوفاة وغيرها."إذ كان للتعاليم الدّينية أثرٌ كبيرٌ في انتشار الكدية،فالكتب السماويّة تحثّ المؤمنين على العطاء والصّدقة،وتعدّهما كفّارة للذّنوب جزاؤها الثّواب والمغفرة،وربما كان ذلك محاولةً لتقليص الفوارق الماديّة بين الطّبقات الاجتماعيّة،وقد استغلّ المُكدون القادرون على العمل وغير القادرين هذه التعاليم،فانطلقوا يستجدون بها،ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الديانات ومنها البراهيمية والبوذيّة كانت تعدّ التسوّل جزءاً أساسيّاً من معتقداتها وتعاليمها،انطلاقاً من أنّ الكدية كسبٌ حلال،إثمه على صاحبه الذي جمعه"[5] كل ذلك في الجدول الآتي، متلوّاً بأهم النتائج المُستخلصة:

** دثار ثوب من المخمل يُستعمل للنوم.

(4)- المصدر نفسه ، ص 89.

*** أي يراه من يعرفه.

(5)- المصدر نفسه ، ص 89.

• مُنع من أداء المناسك لموت بعيره أو أي سبب مانع.

•• من بلاد فارس بناها أنوشروان.

(1)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء ، ص 89.وفي نسخة البخلاء التي أشرف عليها محمد كايد،دار الحكايات،رشاد برس،2003،وردت بلفظ المعدِّس،ص92.وفي أدب الكدية لأحمد الحسين،وردت بلفظ المقدسي،ص48.

(2)- المصدر نفسه،ص 89.وفي نسخة البخلاء التي أشرف عليها محمد كايد وردت بلفظ سجنى،ص93. وقد اعترف الجاحظ أنهم أضعاف ذلك العدد وأنّه لم يذكر من أصناف المُكدين سوى ما جاء في حديث خالويه،نوردها منقولة بنصّها عن شرح الجاحظ.

(3)- حسن، د. أحمد حسين. أدب الكدّية في العصر العباسي،ص237.

حاسّة الخداع	اسم المُكْدِّي	حيلته في الحصول على المال	لباسه	مجال الاحتيال
البصر	المَخَطرَانيُّ	يريك أنّ "بابك" قد قطع لسانه من أصله، ويكون معه شخص يعبّر عنه، ومعه لوح أو قرطاس يكتب فيه قصّته.	يأتي في زيّ ناسك	الدّين
البصر	الكاغاني	يتجنّن ويتصارع ويُزبد، ويبدو كأنّه مجنون.	-	العلاج والمداواة
البصر	القَرسيُّ	الذي يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً حتى يختنق الدّم ثم يمسحه بالصابون ودم الأخوين، ويقطر عليه من السّمن، ويطبق عليه خرقة، ويبدو وكأنّه أصيب بالأُكلة أو بليّةٍ تشبهها.	-	العلاج والمداواة
البصر	المُشعّب	يعمي الصبي حين يولد أو يجعله أعسم أو أعضد ليسأل به الناس أو يكتريه من أمّه من أجل السؤال به.	-	العلاج والمداواة
البصر	الإسطيل	يتعامى إن شاء أراك أنّه منخسف العينين، وإن شاء أراك أن بهما ماء، وإن شاء أراك أنّه لا يبصر للخسف ولريح السَّبل.	-	العلاج والمداواة
البصر	الكَعبي	أضيف إلى أُبي بن كعب المَوْصلي. وكان عريفهم بعد خالويه سنةً على ماء.	-	-
البصر	الكاغان	الغلام يؤجّر نفسه وكان عليه مسحة جمال، وعمل العمَلّين جميعاً.	-	مواقف التسلية
البصر	الفِلّور	يحتال لخصيتيه، حتى يريك أنه آدر، وقد يريك أنّ بهما سرطاناً أو خُرّاجاً أو غَرَباً، وربما أرى ذلك في دُبره بأن يُدخل فيه حلقوماً ببعض الرئة، وربما فعلت المرأة ذلك بفرجها.	-	العلاج والمداواة
البصر	المُكْدِي	صاحب الكِدَاء	-	-
السمع	البانوان	الذي يقف على الباب ويسُلُّ الغَلَقَ ويقول:بانوا،وتفسير ذلك بالعربية: يا مولاي.	-	السحر
السمع	العوّاء	يسأل بين المغرب والعشاء وربما طرب إن كان له صوت حسن وحلق شجيّ.	-	مواقف التسلية
العقول والقلوب	المَزيدي	يدور ومعه الدُّريهمات، ويقول: هذه دراهم قد جُمعت لي في ثمن قطيفة فزيدوني فيها رحمكم الله	-	الألعاب

العقول والقلوب	المُستعرِض	يستعرض الناس وهو في هيئة وكأنّه قد هاب من الحياء، ويكلمك بصوت خفيّ وكأنّه يخاف أن يراه شخص يعرفه.	ثياب صالحة	مواقف التسلية
العقول والقلوب	المُقدِّسُ	هو المُكدي الذي يسأل في كفن الميت، ويقف على الحمار الميّت والبعير الميّت ،يدّعي أنّه كان له.	-	الدّين
العقول والقلوب	الزّكوري	هو خبز الصدقة كان على سجين أو على سائل	-	-

من استقراء ما ورد في الجدول أمكن تسجيل نتائج على جانبين اجتماعي ولغوي:

1-على الجانب الاجتماعي:

1أكثر الحيل المتّبعة من المُكدِين في الحصول على المال تعتمد على الخداع لحاسّة البصر؛ وهذا يعود لما لها من أثر في إثارة شفقة الناس ودفعهم إلى التصدّق عليهم؛ ولأنّ الناس يخشون أن يصابوا بالعاهات الحقيقيّة والمصطنعة التي يبتكرها المُكدون يقدمون على بذل المال والتصدّق عليهم فالصدقة هنا بمنزلة عُوذة أو رقيّة يحمون أنفسهم عبرها من الإصابة بها،إضافةً إلى أنّ استغلال المظاهر الجسديّة من أقوى عناصر الكُدية وأكثرها كسباً.

2عكس لنا الجاحظ من خلال تعرّضه لأصناف المُكدِين عصره الذي علت فيه قيمة المال حتى صار هو المعيار الأوحد، وصار القطب الذي يسعى إليه الأغنياء والفقراء، فالمكدون بخلاء بحثوا عن أيسر الطرق وأضمنها للكسب والغِنى، وليس هناك أيسر من الكُدية والاستجداء.

3تفسير الجاحظ لأصناف المُكدين فيه دلالة واضحة على مدى الانحدار الأخلاقي عند بعض فئات المجتمع العباسيّ؛فالمُكدي صورة مصغّرة لمجتمعٍ جمع كثيراً من السلبيات والأخطاء التي ظهرت في سلوك أفراده.

4حديث الجاحظ عن حيل المُكدِين يعطي دلالة واضحة على تأثّرهم بثقافات عصرهم بما يتلاءم وما يحتاجونه من أنواع الصناعات وأصول التنجيم والعِرافة.

5أكثر مجالات الاحتيال عند المُكدين كان مجال العلاج والمداواة؛ وذلك لأنّ الناس يضعفون في حالة الاستثارة العاطفيّة، فيهون عليهم بذل المال، والذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لا يقصدون سواه يرون الدرهم في يد هؤلاء المُكدين أفضل منه في يد غيرهم.

6 رأينا أنّ بخل المُكدين كان أفحش من بخل البخلاء الآخرين؛وذلك لأنّ البخلاء حين يوصون أصحابهم وأبناءهم لا يوصونهم بالبخل،وإنّما يوصونهم بالاقتصاد في المعيشة؛لأنهم يسمّون البخل اقتصاداً ويسمّون الجود والكرم تبذيراً،أما خالويه في وصيّته لابنه فقد قال:"ولمّا ورثتك من العرف الصالح وأشهدتك من صواب التدبير،وعوّدتك من عيش المقتصدين،خيرٌ لك من هذا المال، وقد دفعت إليك آله[1] لحفظ المال عليك بكلّ حيلةٍ"[2].فأضاف خالويه كما رأينا هنا في وصيّته لابنه إلى جانب الاقتصاد في المعيشة ما أطلعه عليه من صواب التدبير وعلّمه إياه من الدهاء والاحتيال لحفظ المال

(1)- المراد بالآلة هنا ماعوّدتك إياه من الدهاء.

(2)- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. البخلاء،ص79.

7حرفة المُكدي جعلته في حاجة دائمة إلى النّاس،فهو يعيش على ما تجود به الأيدي وتطيب عنه النّفوس، والحرمان الذي كان يتعرّض له المُكدي جعله ينشئ علاقات وثيقة بينه وبين بعض الفئات الاجتماعية قائمة على التّعاون، وأوثق صورة للتعاون والترابط تلك التي قامت بين المُكدين وشتّى ضروب اللصوص والمجرمين،وقد كشف لنا خالويه عن ذلك حين وبّخ ابنه على كسله وتوانيه مشيراً إلى أنه لا يتوانى عن استعمال صناعة الليل أو قطع الطّرق في الحصول على المال،فقال لابنه:"سل عنّي صعاليك الجبل، وزواقيل الشام، وزطّ الآجام، ورؤوس الأكراد، ومردة الأعراب ،وفتّاك نهربط، ولصوص القفص...." [1]

2-على الجانب اللغوي:

1-مهّد الجاحظ بما كتبه في الكدّية إلى فنّ قصصيّ فريد هو فن المقامات ؛الذي نما وتفرّع مستقياً مادته من أدب المُكدين،فروح أدب الكدية تتجلى في المقامات مضموناً ومحتوى،وأبطالها شخصيات تمتهن الكُدية،وتظهر لنا حيلهم وفلسفتهم من خلال مقاماتهم المتجددة والمتغيّرة.

2-كان الجاحظ من الأوائل الذين أدخلوا موضوع ألفاظ المُكدِين في الأدب العربيّ، وكشف لنا عن معجم لغويّ خاص بهذه الفئة ،واعتنائه بمسألة الحقول الدلاليّة عن طريق ذكره لأصناف المُكدين وألفاظهم ،وتفسيره لحيل كل صنف ولباسه وطريقته في الخداع، فقد أثبت لنا خمسة عشر صنفاً لهم،ولم يذكر سوى ما جاء في حديث خالويه .

3-استخدم الجاحظ في قصّه أسلوب الإثارة التي تدعو إلى الإعجاب الشديد ،وجاء عرضه للبخيل المُكدي بطريقةٍ تخرج النّفوس عن طورها بالحزن الشديد(كالمُقدّس)أو الفرح الشديد(كالعوّاء)فيضطرها إلى التّكرم إن لم تكن سخيّة بطبعها راضيةً أو مكرهةً.

4-شاع في أدب المُكدين عند الجاحظ لغة المصطلح وهي لغة للمُكدين يتفاهمون فيما بينهم بها،يمكن استخدامها بحضرة الآخرين دون أن يفهموا منها شيئا،كالبانوان الذي يقف على الباب ويسل الغلق ويقول (بانوا) وهي كلمة فارسيّة تفسيرها في العربية يامولاي،وإلى جانب لغة المصطلح شاعت الألفاظ الغريبة من مثل(فهمت كسر الإكسير ،وزط الآجام،وفتّاك نهر بط..وغيرها)،ولغة المصطلح أفادت دارسي فقه اللغة،كما أنها ساهمت في رفد المعاجم العربية ببعض المفردات،وهي لغة اصطلاحية تواضع عليها المُكدون.

5- أدب الكدية عند الجاحظ فرع من الأدب الشّعبي،وهو أدب الكثرة من الجمهور،أو أدب الجماعة،والذي مثّل لنا حياة فئة اجتماعية متميّزة في علاقتها بالحياة والنّاس،وهي فئة المُكدين،وهذا يفتح الباب للبحث في نشوء اللغات الخاصّة بالطّبقات الشعبيّة،وهو ما يدخل في اختصاص علم اللّغة الاجتماعي،إضافةً إلى تقصّي الأسباب الداعية إلى ظهور مثل هذه اللغات،وأصولها وأساليبها اللّغويّة.

6- تبيّنا بعض معالم حياة المُكدين،واتضحت لنا جوانب من سلوكهم الغامض،وهذا مما سيساهم في تعليل الكثير من الظواهر الأدبية عندهم،ولا سيّما في دراستنا لأغراض شعرهم.

7-للمُكدين شعرٌ ونثرٌ ،ونثرٌ المُكدي خالويه في كتاب البخلاء للجاحظ اعتمد على فن القول،وصياغته بدلاً من اختلاق العاهات والأمراض,فكانت فنون النثر عند المُكدين عامة متنوعة ما بين الخَطابة والوعظ والقصص.

8 _ اعتراف خالويه المُكدي بامتهانه القصّ إلى جانب أعماله وحيله الأخرى،فهو من القصّاص المُكدين،وأخبارهم قد نثرها الجاحظ في كتبه الأخرى ولا سيّما في كتابي"الحيوان"و "البيان والتبيين".

---

(3)- المصدر نفسه،ص83.

خاتمة:

وهكذا نرى أنّ أدب الكُدية يعتمد على الإثارة،ويتميّز بالشكوى،فالأدب الشاكي الباكي صورةٌ مأخوذةٌ عن استجداء المتسوّلين كما نلمسه في واقع الحياة،ولا زال الأدب ذو المنازع الشعبية الذي صوّر الحياة في نطاقها العريض يعاني من إهمال شديد فرضته رسمية الأدب،فالأبحاث تتجه صوب الأسماء المعروفة والبارزة،وأدب المُكدين فرع من الأدب الشّعبي،ولولا عناية بعض الكتّاب به،ويأتي في طليعتهم الجاحظ لانطمست آثاره وضاع واندثر.

وقد حملت الكدية في بخلاء الجاحظ أسلوبه وأسلوب العصر العباسيّ الأول؛إذ تنوّعت فنون نثر المُكدين بين الخطابة،والقصص،والوعظ،وخالويه امتهن القصص.

ورأينا نقاط تشابه بين أدبي الكُدية في الأدب العربي ونظيره في الآداب العالمية،ويعدّ من البحوث المقارنة الطريفة فيما لو تصدّى له أحد الباحثين،ومردّ هذا التشابه كما نرى يرجع إلى حياة المُكدين المتقاربة وإلى انتقالهم وتجوالهم،ولعلّنا قد فتحنا الباب بهذا البحث المتواضع لمن شاء أن يلج منه ليكتشف ما عزّ علينا اكتشافه.

المراجـع:

-القرآن الكريم.

1- الجاحظ، أبي عثمان بن عمرو بن بحر. البخلاء. تحقيق: الشيخ محمد سويد وصحّحه: مصطفى قصّاص. د.ط، دار إحياء العلوم، د.ت.

2- الحاج حسن، حسين. أعلام في العصر العباسيّ. ط1،المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985م.

3- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. د.ط، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1992م.

4- حسن، د. أحمد حسين. أدب الكدّية في العصر العباسي. ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، 1986م.

5- حسين، السيد عبد الحليم محمد. السّخرية في أدب الجاحظ، ط1، الدار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والإعلان، 1988م.

6- حرب، عبد الهادي . موسوعة أدب المحتالين. د.ط، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، 2008م.

7- الربيع، محمد عبد الرحمن. نوادر البخلاء. (نصوص ودراسة). ط1،دار الشروق، القاهرة، 1999م.

8- سعد، فاروق. مع البخلاء. عرض دراسي لكتاب البخلاء. ط1، الشركة اللبنانيّة للكتاب، بيروت، 1971م.

9- طنّوس، وهيب. في النثر العباسي. ط2، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعيّة، جامعة حلب، 1981م.

10- عويس، د. محمد. المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ. د.ط، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1977م.

11- الكعبي، د. ضياء. السرد العربي القديم. (الأنساق الثقافيّة وإشكاليات التأويل). ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005م.

12- المنجد، صلاح الدين. الظُرفاء والشّحاذون في بغداد وباريس. ط5، دار الكتاب الجديد،بيروت، 1993م.

13- النّصراوي، الحبيب. مؤلفات الجاحظ مصدراً من مصادر معجم اللّغة العربيّة التّاريخي. دراسة في مستويات اللّغة العربيّة. د.ط، مطبوعات مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، 2009م.

14- النويري، أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب.نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب،سلسلة تراثنا

الدوريات:

1-المالح، د. غسّان. "أدب الشّحاذين". دراسة مقارنة. مجلّة العربي. تصدرها وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 119، أكتوبر 1968م.